

آليات الخطاب الدعوي

د/ منصور عفيف - جامعة قسنطينة

تمهيد :

إن الدعوة تقوم على أسس ثلاثة ممثلة في :

العقل: الذي يعتبر من الأسس التي يمكن استخدامها في الدعوة إلى الله و العمل على السير بها في إطار الخير حيث يعد من أهم مقومات الإنسان الذي يريد أن يدعو إليه.

العلم: باعتباره ذلك الأساس الذي تركز عليه دعوة المصلحين و هو على هذا مفيد في استخدام الدعوة و إفادة الإنسان الداعية و إعطائه (أي العلم) الدعوة المكانة اللائقة بها.

أما الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر : فهو عند العلماء و العقلاء قاعدة أشمل و عليه فكل هذه القواعد قد تمكن الداعية من معرفة الحق و معرفة ما يضر من شر و ما ينفع من خير في شتى مجالات الحياة و تجعل من الداعية إنسانا واقعا يدعو من حوله في إطار التسامح و عدم التكابر و الانغلاق . و من هنا يمكن للدعوة أن تحقق أهدافها و مراميها على جميع الأصعدة.

تعريف الخطاب :

قال الفيروز آبادي معرفا الخطابة قائلا : و خطب الخاطب على المنبر خطابة بالفتح و خطبة بالضم و ذلك الكلام خطبة أيضا أو هي الكلام المنشور المسجوع و نحوه رجل خطيب حسن الخطبة بالضم و إليه نسب أبو القاسم عبد الله بن محمد الخطيبي شيخ لابن الجوزي و أبو حنيفة محمد بن عبد الله بن محمد الخطيبي.

و الخطاب بأشكاله المتنوعة موجه إلى عامة المسلمين و لم يكن مقتصرًا على فرد أو جماعة بعينها و إنما هو شامل لجميع المخلوقات⁽¹⁾.

قال تعالى و « ما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا و نذيرا » .

و إذا كان العلماء هم أولى بتوجيه الخطاب إلى الناس فهم أولى أيضا بالتمسك أساسا بالقرآن الكريم و اعتباره ذلك ينبوع الذي يستقون منه آراءهم و أغراضهم و أهدافهم و مبادئهم فيكونون ذلك النور الساطع الذي يسري في مجتمعاتهم و هم يوجهون خطاباتهم إليها من أعلى المنابر بل و هم يقودونها

إلى مصدر الرخاء والخير، قال القرضاوي و أود أن أنبه الداعية الذي يريد أن يعيش مع القرآن ليأخذ منه زادا لقلبه و يقتبس منه نورا لعقله و يستمد منه ريا لروحه ثم يجد الآخرين بعد ذلك من فبض هذا الري، و ذلك النور، و ذلك الزاد. إلى عدة أمور:

* جمع الآيات في الموضوع الواحد و تصنيفها :

فعلى الداعية إذا أراد أن يتحدث في موضوع ما محاضرا أو مدرسا أو خطيبا أو كاتباً أن يجمع الآيات المتعلقة بموضوعه، و يعمل على تصنيفها بما يلائم الغرض، و يوضح نظرة القرآن إلى الموضوع.

و ينبغي للداعية المتبصر هنا أن ينظر نظرتين:

* إحداها: تتعلق بالألفاظ القرآنية المتعلقة بموضوعه، و هذه يفيد منها «إلى حد كبير» مراجعة

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، و لاسيما لمن لم يكن مستظها القرآن.

* والثانية : تتعلق بالمعاني المتصلة بموضوعه، و هذه تحتاج إلى بصيرة و فطنة و حسن إدراك لما له صلة بالموضوع و إن لم يرد بنفس اللفظ و العبارة⁽²⁾.

و المهم في هذا وذاك هو حسن التصنيف و التقسيم الذي يوضح المعالم و يبرز المقومات و الخصائص، و يبين الأهداف و الآثار.

إذا أردنا الحديث عن القرآن فإننا نجد أنفسنا أمام حشد هائل من الآيات يبلغ المئات.

والداعية عليه أن يتقيد بالقرآن كقاعدة يستطيع من خلالها النفاذ إلى أعماق نفوس مخاطبيه و عليه فقد يلزمه الخطاب بوعي ذلك الإنسان الفاهم لما يقول و الدارك أيضا لما يصدر عنه من كلام موجه إلى مخاطبيه، حيث أن هناك نقطتنا ارتكاز

رئيسيتان و شرطان ضروريان يمثلهما الداعية قصد ضمان تقدم الإسلام في دعوته الموجهة إلى من يقودهم على اعتبار أن الفكرة التي ينشط في إطارها الداعي هي مطلقة، قال أحمد سيكوتوري : القرآن بوصفه كلام الله لا يملك أحد إحداث أدنى تعديل فيه، و لن يحدث للفكر البشري مهما تقدم أن يتجاوز القرآن الذي أنزله الله لكل زمان و مكان، و من يقرأون القرآن اليوم يفهمون مراميهم من خلال الحياة الاجتماعية التي يعيشونها الآن.

و منذ أكثر من ألف عام قرأ آخرون القرآن، و بعد ألف عام ثانية سيقراه آخرون و سيفهمونه أيضا في إطار الحياة الاجتماعية التي ستسود عصرهم، ماذا يبقى الآن إذن من أجل تقدم الإسلام؟ انه تنظيم

الشعوب المسلمة على نطاق العالم، و أيضا تنظيم المسلمين في كل قرية، و في كل بلد و في كل قارة، فالإسلام وسيلة في خدمة وحدة البشرية و لقد خلق الله الإسلام للجماعة الإنسانية و لكل فرد فيها لأن الإسلام هو الوسيلة السامية التي توجه الإنسان إلى النهج الإلهي و تضعه ضمن إطار الجماعة.

و لما كان الإسلام دينا واحدا لكل الأجناس و لكل العصور و لكل البلاد فلا يخص جنسا واحدا، و لا لون بشرة معين، و لا بلدا دون غيره فحيثما كان المسلمون على اختلاف أصولهم العرقية يجب أن يشكلوا كتلة واحدة لا تتجزأ طالما أن الإسلام وحدة لا تتجزأ.

فالشرط الأول إذا لتقدم هو تنظيم المسلمين حيث يكونون على أساس من الأخوة الإسلامية، و يجب أن يعد هذا التنظيم الإسلام وسيلة العدالة و الحرية و التكافل و الحقيقة، و يجب أن توجه روح القرآن البشر إلى حل جميع مشاكل الحياة حلا سليما⁽³⁾.

و إذا سلمنا أن حياة كل منا في هذه الدنيا تنتهي به حسب الطريق الذي يسلكه إما إلى الجنة أو النار، أمكننا أن نستنتج أن كلامنا يعد جنته و ناره على هذه الأرض، و لهذا فالخطأ الفادح الأول أن نفصل بين العلم الآخر و السلوك الحالي و الخطأ الثاني أن نقول أن الدين شيء و الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الحياة السياسية شيء آخر يجب أن يضيء فكر القرآن الأساسي ضمير الشعوب حتى تكون جميع ممارساتها السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية متفقة مع تعاليم الله التي ألزم به البشر، إن القرآن فلسفة و فكرة عقائدي، و لا يمكن لمسلم يعرف معنى القرآن يقدم حلا لجميع المعضلات التي تشغل الإنسان.

إن للمسلم بهذا فلسفته الخاصة، و عليه أن يدافع عنها و يعمل على نشرها في شجاعة و أن يستشعر الشرف و الفرحة في ذلك، و نستطيع أن نقول بالتالي إن الاستعمار قد فرض علينا فلسفات أخرى.

و لهذا يجب و نحن نعمل على نشر الإسلام و تعميق فهمنا له أن نخلل جميع اهتمامات الشعب و شواغله، وأن نوضح روح الإسلام التي يجب أن تقود معركته في سبيل التقدم، و أن نجد الحلول الصائبة للصعوبات التي يلاقيها الأفراد و الشعوب في ضوء القرآن الكريم.

و الداعية هنا يتوجب عليه أن يلتزم بالقرآن و أن يفهم أن نفسه بحاجة إلى صقل حتى لا تزل قدمه و يسير بعد ذلك مع هواء وشهواته و رغباته فلا يلتفت إليه عندئذ من طرف بني مجتمعه فهو القدوة التي

تتحرك في وسط هذا المجتمع و هو ذلك الإنسان الذي يحاول قدر المستطاع أن يفيد و يستفيد ممن حوله كما ذهب إلى ذلك فتحي يكن حيث قال أن مقومات النمو تكمن أساسا في معركة النفس.

القلب ما كان حيا، رقيقا، صلبا، مشرقا، لقول علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه (إن الله تعالى في أرضه آنية وهي القلوب فأحبها إليه تعالى أرقها وأصفها وأصلبها ثم فسرهما، فقال أصلبها في الدين، أصفها في اليقين و أرقها على الإخوان) وقوله (قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهو، وقلب الكافر أسود منكوس) و القرآن الكريم يصور قلوب المؤمنين فيقول: « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » (الأنفال/02) ⁽⁴⁾ ، بينما يصور قلوب الكافرين فيقول: « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (الحج/46) ⁽⁵⁾

فيقول: « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (محمد/241) ⁽⁶⁾ .

وإذا كان انتماء الداعية إلى الإسلام فإن الواقع يفرض عليه أن يعيش له عقيدة و عبادة وأخلاقا، يعيشه في نفسه و بنيه وأهله، فانه يفرض عليه أيضا أن يعيش له و أن يوجه كل حاجته لأجله، كما يسخر كل طاقاته و إمكانياته لما يعزز سلطان الإسلام عند الداعية و يرفع بنيانه قال فتحي يكن: وهذا الداعية هو المؤمن حقا بالدين وهو يدرك حقيقة هذه الحياة كما يدرك قيمة الدنيا من الآخرة ⁽⁷⁾ « وما الحياة الدنيا إلا لعب و لهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (الأنعام/331) ⁽⁸⁾ .

فلا تلهيه أو تشغله عن تحقيق الغاية التي من أجلها خلق « وما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون » (الذاريات/56) ⁽⁹⁾ .

فالمنتمي إلى الإسلام بحق يعتبر الدنيا ميدان تنافس على طاعة الله و رضاه، حياته كلها علمه تجارته أمواله ، بيته وقته و ذهنه مسخرة في هذا السبيل. الذي يعد بطبيعة الحال شاقا و مضنيا يتطلب من الداعية الصبر على المكاره و عدم النظر إلى متع الدنيا و زخرفها حيث يعرضه ذلك إلى التقاعس عن المهمة المناطة به باعتبارها أمانة يؤديها بينه و بين نفسه من ناحية و بينه و بين مجتمعه و إلهه من ناحية أخرى قال فتحي يكن : إن عمل الداعية بالإسلام يستهدف إيجاد المجتمع الذي يلزمه فكرا و سلوكا إن هذا العمل بقدر ما يحتاجه و يتصل به أو يتفرع عنه و يتطلبه فهو واجب شرعي ⁽¹⁰⁾ .

فالداعية هو ذلك الضابط الأمين الذي يحكم التصرفات و يوجه السلوك و يتوقف على مدى انضباطه بما يقول و على أحكامه التي تصدر عنه فان كل ما يصدر عن النفس من كلمات أو حركات

بل حتى الخلجات التي تساور القلب و المشاعر التي تعمل في خلجات النفس, و الهواجس التي تتمر في الخيال هذه كلها تتوقف على هذا الجهاز الحساس الذي يملكه الداعية و الحاصل أن الداعية يمثل تصرفات فإذا عطل جزء منها أحدث فسادا كبيرا في التصرفات و انفراجا هائلا من حيث الابتعاد عن سواء الصراط, و هو يدعو إلى الإسلام بعد أن يتحلى به كما قال رمضان البوطي عقيدة و خلقا و سلوكا و لا ينسى أن يغذي فؤاده خلال ذلك بأسباب الرغبة في ثواب الله و الرهبة من عقابه و المراقبة الدائمة.

و يدعو إليه من منطلق الشفقة على عباد الله جميعا كي لا يقعا غدا في آلام كاوية من الندامة التي لا تغنيهم شيئا, فإن رب العالمين جل جلاله ما دعا عباده إلى دينه هذا, إلا رحمة بهم و حبا لإسعادهم فأولى بك و أنت جندي تدعو الناس بدعوتك, ألا تدفعك إلى ذلك إلا الرحمة و الشفقة و الغيرة عليهم.

حيث يدعو العقول عن طريق الحجة و البرهان إلى اليقين بعقائد الإسلام , و يدعو النفوس عن طريق منهاج التزكية النفسية إلى الالتزام بسلوك الإسلام و لن ينجح في ذلك إلا بعد أن يبدأ فيزكي النفوس من أضرارها و أمراضها جهد استطاعتنا⁽¹¹⁾.

نركل من طريق ما بيننا و بين الآخرين كل عصبياتنا و أنانيتنا و رغباتنا في الانتصار للذات, حتى تتاح الفرصة لهم أيضا أن يفعلوا مثل ذلك فينحوا عصبياتهم و أنانياتهم عن الطريق حتى تنفذ إليهم كلمة العلم و الحق صافية سائغة لا تخلط بأعمال الدعوة شوائب المعوقات و زوائد الشهوات و الأهواء, و لا نشغل بال الناشئة بها, فإنها توقعهم إلا في رهق لا جدوى منه, و لا تعود إليهم إلا بلبال فكرية تورث الفتنة و لا تحقق الخير.

سلاح الداعي إلى الله أولا: العلم بكتاب الله و سنة رسوله و ما أجمع عليه سلف هذه الأمة. ثانيا: العاطفة الإسلامية التي غذيت بالعلم و ارتبطت بمجده. فمن حمل لواء الدعوة إلى الله بدفع من عاطفته وحدها لا يسلم من الوقوع في غواية أو إغواء, و من حمل لواءها بدفع من علمه المجرد, لا يعدو أن يكون مفتيا يضع أمام الناس قائمة أحكام الحلال و الحرام. و تعليم الأحكام, يختلف عن الدعوة إلى الإسلام.

شعار العبد الذي أخلص في الدعوة إلى الله هو قوله عز وجل: فذكر إنما أنت مذكر, لست عليهم بمسيطر فهو يؤدي بعمله وظيفة كلفه الله بها.

أما هداية الناس و استجابتهم له فشيء مناطه الإرادة الربانية التي يتم على أساسها تدبير الأمور.

سلاح القائم بدعوة الله، كثير ذكر و تضرع و بكاء، و كثير استغفار في الأحجار و تلاوة للقرآن، و حراسة دائمة للقلب ألا تسيطر عليه الأهواء. و كل التدابير الأخرى على أهميتها، إنما يأتي وراء ذلك. و أخيرا مقياس القرب إلى النجاح، أمام الداعي إلى الله، هو قول الله عز وجل "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" بقدر ما تشيع الاستقامة و يتوفر الصدق و الأخلاق في حياة الأفراد، تنهض دعامة جديدة بتوفيق الله في بناء الإسلامي المنشود.

حيث أن الإسلام قول و عمل على اعتبار أن الذي يصحبك هو عملك لأن الدنيا ليست إلا دار خراب بينما الآخرة هي دار المستقر و قد قال أبو جرة : " فكيف يبني الإنسان دنياه و يهدم آخرته و كيف يبني القصور و ينسى القبور و لكل شيء زكاة و زكاة (لا اله إلا الله) هو ذلك الخطاب الذي يمثل الداعية في حياته إذا لا يكفي ادعاء الإيمان النظري و الوقوف عند حد الصلاة و الزكاة والصوم والحج والشهادتين ما لم يتجاوز المؤمن إلى ضفاف الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر⁽¹²⁾.

فالمسلم إذا آمن تحول قطب موجب عليه أن يقف في مواجهة التجاذب و التصادم مع كل الشحنات السالبة من بني البشر، عليه أن يعد العدة ليتدافع مع نفسه قصد العمل على ما يصلح مجتمعه انه إذا أعلن إيمانه قد أصبح نهارا يطارده الليل و إن لم يقف صلبا مؤمنا دفعه الليل بعيدا و سيطر على الكون سرمديا ثقيلا.

الداعية 2-

و الداعية باعتباره قائد أمة و ناطق بلسانها لا بد عليه أن يمثل الخطاب الدعوي في كل ما يريد توجيهه لمن حوله و هذا النص القرآني يستطيع الداعية في الخطاب أن يتوجه من خلاله إلى من يريد إصلاح شؤونهم قال أحدهم: إن النص القرآني نص حي لا ينتهي عطاؤه، و ندي لا تحف روحه و خالد لا يخضع لعوامل الزمان والمكان.

إن هذا القرآن حيث لم يمت و أنه يجري كما يجري الليل والنهار و كما تجري الشمس و القمر و يجري على أحرنا كما يجري على أولنا⁽¹³⁾.

و قد امتلك القرآن هذه الحصانة و توفر على هذه الصفة، صفة الخلود و الجريان بسبب مؤهلات النص القرآني و خصائصه الآتية:

أ- السعة و المرونة اللفظية في القرآن الكريم التي تساعد على استيعاب مدد غير محدود من المضمون الفكري و العطاء التشريعي ليأخذ منها كل جيل حاجته و يقتبس كل عصر مفاهيم حياته، إن القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق، لا تفنى عجائبه و لا تنقضي غرائب، و آيات القرآن خزائن فكلما فتحت خزينة ينبغي لك أن تنظر فيها، و تمثل لهذه الصفة القرآنية الخالدة بالنصوص الآتية:

قال تعالى: « و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا و أوحينا إليهم فعل الخيرات » (الأنبياء/83)⁽¹⁴⁾

« إن الله يأمر بالعدل و الإحسان و إيتاء ذي القربى و ينهى عن الفحشاء و المنكر و البغي يعظكم لعلكم تذكرون » (النحل/85)⁽¹⁵⁾ .

« و لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها » (الأعراف/85)⁽¹⁶⁾ .

« وما الله يريد ظلماً للعباد » (غافر / 31)⁽¹⁷⁾

فهذه الألفاظ القرآنية الواسعة المرنة مثلاً التي حملت مفاهيم كلية الانطباق لا حدود لمصادقيتها، فمفاهيم (الخيرات، العدل، الإحسان، الفحشاء، المنكر، البغي، الفساد، الإصلاح، الظلم) هي مفاهيم كلية مجردة تستوعب كل ما يمكن أن يقع في دنيا الإنسان من المفردات المنطوية تحتها دون تشخيص أو تخصيص جزئي لمفرداتها بشكل يجعل دلالتها محصورة بحدود هذه المفردات، فكل ما ينطبق عليه مفهوم العدل و الخير و الإحسان فهو واجب أو محبب في الإسلام، و كل ما هو فساد و ظلم و فحشاء فهو محرم و بذلك تبقى تلك العناوين اللفظية الواسعة المرنة ممتدة مستطيلة تستوعب كل مستجد في حياة الإنسان منضو تحت امتداداتها الكلية الشاملة لينمو في ظلها الخير و العدل و الإحسان و الإصلاح و يتوارى البغي و الفساد و الظلم و المنكر و الفحشاء.

و يضيف قائلاً:

ب- أن تجرد النص من الارتباط بالزمان والمكان و الجزئية فلا تكونن ممن يقول للشيء أنه في شيء واحد، و لو أن الآية نزلت في قوم ثم مات أولئك، ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء و لكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات و الأرض و لكل قوم آية يتلوها هم، منها خير أو شر.

فالنص القرآني تعبير لفظي عن قانون عام و الحالة الجزئية التي يرد النص أحياناً معالجاً لها لا تحدد النص بحدودها الجزئية، ولا يكون موضوعها الجزئي هو البعد و المجال النهائي للانطباق بل يستمر انطباقها و امتدادها عبر الأزمان و الأجيال على كل الحالات التي تعبر هذه الجزئيات عن روح القانون

الكلي لها، و تمثل أحد الأفراد المنطوية تحت حكمها لذلك جاءت القاعدة العامة العبرة بعموم اللفظ بخصوص السبب⁽¹⁸⁾.

و النصوص القرآنية بطبيعة صيغتها الخطابية و صياغتها اللفظية هي عامة و مطلقة في أحكامها معالجتها.

ج- إن القرآن صياغة لفظية لقوانين الوجود الإنساني و للعلاقات الإنسانية بالله و بالحياة و الآخرة. و تلك القوانين هي أسس خالدة في نظام الحياة و هي قواعد كلية و خطوط رئيسية عامة للحياة، لذا فالنص القرآني بميكلة اللفظي، و بالمعنى المختزن فيه يبقى خالدا لخلود محتواه، و عموم مفاهيمه. إن محتوى القرآن يحتاج إلى دراسة و تحليل و استنتاج و فهم عميق لملاء كل فراغ مستجد في الحياة الفكرية و التشريعية و لاستخراج ما في نصوصه من مضامين، و ما في خزائنه من كنوز فكرية و تشريعية لا تنضب، لذا كان اللجوء إلى أهله العلم و الرجوع إلى ذوي الخبرة أمرا لا بد منه، إذ لا يصح فهم القرآن حسب الدوق و إخضاعه للأهواء و الرغبات، و اتخاذ ذريعة لتبرير ما يريد فعله. هذا القرآن إنما هو خط مستور بين الدفتين لا ينطق بلسان و لا بد له من ترجمان، و إنما ينطق عنه الرجال.

آيات القرآن خزائن، فكلما فتحت خزينة ينبغي لك أن تنظر فيها، و القرآن هو الذي يحدد لنا الجهة التي يجب الرجوع إليها في فهم مداليله و إيضاح أهدافه و كشف مضامينه، و يؤكد إن هذه الفئة هي أهل العلم و الخيرة و الفقاهاة. قال تعالى: « فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (التوبة/ 122)⁽¹⁹⁾.

« و لو رده إلى الرسول و إلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » (النساء/ 83)⁽²⁰⁾. « فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (الأنبياء/ 07)⁽²¹⁾.

قال القرضاوي: و لكن أين الخلل و هو يتساءل هي هنا و للخطاب الدعوي و عن الداعي المكلف بالدعوة فيقول انه مشكل عام و شامل و المسؤولية موزعة على الجميع، و إن تفاوتت مقاديرها.

انه ليس خللا في الحركة الإسلامية وحدها، بل هو خلل في الأمة الإسلامية جمعاء و إن شئنا الصراحة قلنا: انه خلل في داخل كل منا، في أنفسنا التي بين جنوبنا في حينا لدواتنا، و طوافنا حولها كما

يطوف الوثني بوثنه، في محاولتنا تبرئة أنفسنا واتهام غيرنا، وإلقاء التبعة على كل أحد سوانا، يري كل منا القذى في عين أخيه و لا يرى الخشبة في عينه.

أجل الخلل في كل منا، فهو يطلب من المسلمين أن يعملوا وهو فارغ و أن يجاهدوا و هو قاعد، و أن يدللوا وهو شحيح و أن يضحوا وهو متفرج. الخلل في كل منا حيث يؤمن بالله ولا يطيع أمره، و يحب رسول الله ولا يتبع نهجه و يريد الجنة ولا يسعى لها سعيها، و يخاف النار و يسلك سبيل أهلها و يفخر بالانتساب إلى الإسلام و لا يعمل لنصرتة. فطوبى لمن بدأ بإصلاح نفسه ثم بدعوة غيره، و وضع يده في كل من كان على شاكلته من أهل الخير، مبترم بيومه و لا يائس من غده واثقا من نفسه معتزا بدينه مؤمنا بربه آملا في نصره الذي وعد به المؤمنين.

و رغم اتساع الخلل فان سده ممكن و بواعث الأمل في انتصارنا أكبر من عوامل اليأس و القنوط.

و مما يقوي جأنا في المستقبل:

1- أن معنا الحق الذي قامت به السماوات والأرض و بعث الله به خاتم رسله، و أنزل به آخر كتبه و الذي يحمل الهداية للفرد و السكينة للأسرة و التماسك للمجتمع و الخير للإنسانية.

2- و أن معنا فطرة الإسلام التي فطر الله الناس عليها و التي يرجع الى حظيرتها كل يوم أعداد غفيرة، تهددي بعد ضلال أو تتوب بعد معصية أو تستقيم بعد انحراف في الفكر أو في السلوك أو تتنبه بعد غفلة و طول رقاد، و تنضم الى قافلة العائدين إلى موكب الاسلام.

3- و أن معنا شعوب الأمة الإسلامية، التي غدا الإسلام لحمتها و سداها، و أصبح جزء لا يتجزأ من كيانها العقلي و النفسي و الاجتماعي فلا يمكنها أن تعيش و تحقق ذاتها إلى بالإسلام و لا

يحركها شيء كما تحركها كلمة الإسلام, و قد جريت الحلول المستوردة من الشرق و الغرب فلم تحقق بها أملا, و لم يبق إلا الحل الإسلامي منقدا.

4- و أن معنا مصلحة الإنسانية أتى شقيت بفلسفات البشر و تشريعات الأرض فما عاد سعيها إلا هداية الماء و لا توجد هذه الهداية نقية مصفاة إلا في رسالة محمد * صلى الله عليه و سلم* التي حفظ الله كتابها فلا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.

5- و معنا قبل ذلك كله و بعده : تأييد الله تبارك و تعالى الذي وعد بنصرة من ينصره و تكفل بأن يظهر دينه على الدين كله و لو كرر المشركون, و أن يتم نوره و إن كاد له الكائدون⁽²²⁾ » يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم و يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كرر الكافرون, هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله ولو كرر المشركون «(التوبة/33-32)⁽²³⁾ .

الدعوة: 3-

إن هذه الكلمة و التي نسميها بكلمة الإسلام ذلك المتسامح و الدليل على ما يقال هي هنا أن كثيرا من الناس قد تركوا عقائدهم و ما كانوا عليه ثم لجئوا إلى هذا الركن الحصين فما ذلك إلا لتساخه مع جميع أبناء البشر و قبوله إياهم تحت لواءه باعتباره رحمة لجميع عباد الله في كل ما جاءت به هذه الحياة فهو شامل للكون و الحياة و الآخرة فيه تسعد الإنسانية حيث قال الطباطبائي كان وضع المجتمع الإنساني يومئذ عهد الجاهلية ما سمعته من أكباب الناس على الباطل و سلطة الفساد و الظلم عليهم في جميع شؤون الحياة, و هو ذا دين التوحيد و هو الدين الحق يريد أن يؤمر الحق و يوليه عليهم تولية مطلقة, و يظهر قلوبهم من ألوات الشرك, و يزكي أعمالهم و يصلح مجتمعاتهم بعدما تعرف الفساد. الفساد في جذوره و أغصانه و باطنه و ظاهره.

و بالجملة يريد الله ليهديهم إلى الحق الصريح, و ما يريد ليجعل عليهم من حرج ولكن يريد ليظهرهم و يتم نعمته عليهم فما هم عليه من باطل و ما منهم كلمة الحق في نقطتين متقابلتين و قطبين متخالفين, فهل كان يجب أن يستمال منهم البعض و يصلح بهم الباقين من أهل الباطل, ثم بالبعض حرصا على ظهور الحق مهما كان و بأي وسيلة تيسير⁽²⁴⁾ .

و الدعوة هي ذلك النهر الذي يتعين على الداعي أن يكون قادرا على تحمل المسؤولية فيه قال المودودي: إننا إذا أردنا عرض دعوتنا و إجمال غايتها و أهدافها في كلمات قليلة يمكننا أن نقسمها مطلبين أساسيين.

1- دعوتنا للبشر كافة والمسلمين خاصة, أن يعبدوا الله وحده و لا يشركوا به شيئا و لا يتخذوا إلها و لا ربا غيره.

2- و دعوتنا لكل من أظهر الرضا بالإسلام ديننا أن يخلصوا دينهم لله و زكوا أنفسهم من شوائب النفاق و أعمالهم من التناقض ...

هذا و إن العبودية لله الواحد الأحد التي ندعو إليها ليس المراد بها أن يقر العبد بعبوديته لله تعالى شأنه ثم يبقى في حياته العملية حرا طليقا كما كان من قبل في حياة الجاهلية, و كذلك ليس المقصود من عبودية العبد لله أن يعتقد كونه تعالى خالقا للكون, رازقا لمن في الأرض مستحقا للعبادة من جميع خلقه, من غير أن يكون له سلطان في هذه الحياة الدنيا و مسائلها و شؤونها المتعددة المتشعبة وأيضا ليس من معنى العبودية أن تقسم الحياة قسمين: قسم يتعلق بالدين أو الأمور الدينية, و قسم يتصل بالدنيا و شؤونها العديدة المتنوعة, و أن تنحصر العبودية لله في القسم الديني الذي لا يخرج حسب المصطلح الشائع عن دائرة العقائد و العبادات و المسائل التي لها علاقة بالحياة الفردية و الأحوال الشخصية, أما الحياة الدنيوية و شؤونها المتشعبة و فروعها المتنوعة من مسائل العمران و السياسة والاقتصاد و الأدب و الأخلاق فلا سلطان فيها لله الواحد الأحد و لا نفوذ لأحكامه في دائرتها⁽²⁵⁾, و العبد حر في بابها يفعل فيها ما يشاء و يضع لنفسه من نظم العمران و الملك ما يريد, أو يختار من النظم الوضعية ما يحبه ويرضاه فالقائمون بدعوة الإسلام في هذه البلاد و طبعاً في سائر أقطار العالم لأن الدين واحد لم يتغير و الكتاب واحد لم يأت الباطل من بين يديه و لا من خلفه يرون و يعتقدون أن معاني العبودية هذه كلها باطلة من أساسها و يرون القضاء عليها و قطع دابرها كما يريدون استئصال نظم الكفر و الجاهلية و اجتثاث شرورهما من جذورهما لأن هذه المعاني و التعابير هي التي شوّهت وجه الحقيقة و مسخت فكرة الدين مسخاً كما يضيف المودودي أن الذي نراه و نجزم به و نعتقد و ندعو الناس إليه أن العبودية التي دعت إليها رسل الله الكرام من لدن أبي البشر آدم عليه السلام إلى سيدنا و سيد المرسلين و خاتمهم محمد النبي الأمي صلى الله عليه و سلم, المراد بها أن يقر العبد و يعتقد أنه ما من

إلا الله الفرد الصمد الحاكم بين عباده السيد المطاع في بريته المشرع للدستور و القوانين والمالك لأموارهم المتصرف في شؤونهم المجازي على أعمالهم و أن يسلم نفسه لذلك الله العزيز المقتدر و يخلص دينه له تعالى جده و يذعن لعبوديته كل شأن من شؤون حياته الفردية منها و الاجتماعية الخلقية منها و السياسية الاقتصادية منها الاجتماعية, و بهذا المعنى ورد في التنزيل قوله عز من قائل: « يأيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة » (البقرة/ 204)⁽²⁶⁾.

الذي يأمر فيه عباده أن أدخلوا في دين الله كافة بمجموع حياتكم بحيث لا يشد عن سلطانه شيء ولا يند عن دائرة نفوذه جزء من أجزائها⁽²⁷⁾.

فلا يكن من شأنكم في ناحية من نواحي حياتكم أن تتجردوا من عبوديته الشاملة فتحسبوا أنفسكم أحرارا في شؤونكم تختارون من المناهج و الأوضاع ما تريدون أو تتبعون من النظم و القوانين الوضعية المستحدثة ما تحبون أن هذا هو معنى العبودية الذي نبثه و نعممه و ندعو البشر كافة المسلمين و غير المسلمين, إلى قبوله والإيمان و الإذعان له.

فتنتطوي الدعوة على سر التمييز الإنساني كما قال سيكوتوري: لقد رأينا أن الإنسان هو امتداد للطبيعة بالإضافة إلى وعيه و ضميره فالإنسان يجمع بين الجانبين المادي و الروحي.

و لو أننا افترضنا على سبيل المثال أننا أتينا بطفلين ولدا اليوم إلى هذه القاعة ووضعنا إلى جانبهما مجموعة من الأبقار و الدجاج والأسماك و العصافير التي ولدت اليوم أيضا. وزودناها بالماء و بجميع أنواع الغذاء التي يحتاجها الأطفال و الحيوانات بينما يغمرها كذلك الهواء و فصلنا الأطفال عن الحيوانات حتى لا تؤذيهم وبقى الجميع في هذا الإطار عشرة أعوام يعيشون على اللحم و الأرز واللبن و الخضر و الفواكه و جميع أنواع الغذاء لكن دون تركهم يغادرون القاعة, سيكبر الأطفال و يبلغون عشرة أعوام ثم خمسة عشر عاما و يكتمل بناؤهم الجسدي و كذلك سيكبر العجل الصغير و يصير بقوة ضخمة في نفس القاعة و دون أن يتخطى جدرانها, وهكذا يأكل البشر و الحيوانات نفس صنوف الأغذية من خضر و فواكه و غلال و ثمار و ألبان الخ.... كما يتشكل دم البشر و الحيوانات من طبيعة واحدة, كما أن لحمهم واحد.

و نستطيع أن نستنتج من هذا أننا مثل الحيوانات من بعض النواحي فما الذي يميزنا عن الحيوانات إذن ... انه الفكر.

تتميز الدعوة إلى سيطرة الفكر على الإنسان، أي على الجزء الحيواني منه انه يعني أن الفكر يسيطر على الطبيعة إذ يقول الإنسان لنفسه " إنني في حاجة إلى الطعام غير أنني أرفض تناول الطعام بجهد من إرادتي، ولن أشرب ولن أدخن و لن أمارس عددا من الأشياء التي اعتدت ممارستها و سأقبل عن طواعية كل الآلام في سبيل أن أنتصر على جسدي و أتقرب إلى الله ذلك أن الفكر هو الذي يقرب الإنسان من الله، بينما يقرب الجسد الإنسان من الحيوان و التراب.

إن الدعوة تبيح إلى الإنسان أن يسمو و للفكر أن يسيطر على الجسد و للإنسان أن يسود الطبيعة ذلك هو أساس الدعوة. على اعتبار إنها الحق الصريح الذي تؤمه دعوة الإسلام حيث أن الغاية هي ولادة مقدماتها و وسائلها فكيف يمكن للباطل إن يلد حقا و في الوقت نفسه كيف الصحيح سقيما و الوليد مجموعة مأخوذة من اللذين ولدانه.

قال الطباطبائي: و لكن الدعوة الحققة لا تبتغي إلا الغرض الحق و لو توسلت إليه بباطل لكن ذلك منها إمضاء و انقادا للباطل فتصير دعوة باطلة لا دعوة حققة و لهذه الحقيقة ظهورات بارزة في سيرة رسول الله * صلى الله عليه و سلم * و الطاهرين من آله عليهم السلام.

و بذلك أمره . صلى الله عليه و سلم . ربه و نزل به القرآن في مواطن راودوه فيها للمساهلة أو المداينة (و لو يسيرا) في أمر الدين، قال تعالى: « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون و لا أنتم عابدون ما أعبد و لا أنا عابد ما عبدتم و لا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم و لي دين » (سورة الكافرون)⁽²⁸⁾ و قال تعالى و فيه لحن التهديد . « و لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأذقناك ضعف الحياة و ضعف الممات " (الإسراء /75)⁽²⁹⁾ قال تعالى: «و ما كنت متخذ المضلين عضدا » (الكهف/51)⁽³⁰⁾ .

و قال تعالى: و هو مثل وسع المعنى: «و البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه و الذي خبث لا يخرج إلا نكدا » (الأعراف /58)⁽³¹⁾ و يقرر الطباطبائي على أنه : إذا كان الحق لا يمازج الباطل و لا يلتئم به فقد أمره الله سبحانه حينما أعباه ثقل الدعوة بالرفق والتدرج في أمرها بالنظر إلى نفس الدعوة و المدعو إليه جهة ما إشتمل عليه الدين من المعارف الحققة و القوانين المشرعة التي من شأنها إصلاح شؤون المجتمع الإنساني، و قطع منابت الفساد فان من الصعب المستصعب تبديل عقائد الناس و لا سيما إذا كانت ناشبة في الأخلاق و الأعمال وقد استقرت عليها العادات، ودارت عليها القرون، وسارت عليها

الأسلاف، ونشأت عليها الأخلاق و لا سيما إذا عمت كلمة الدين ودعوته جميع شؤون الحياة و استوعبت جميع الحركات الإنسانية و سكناتها في ظاهرها و باطنها في جميع أزمنتها و لجميع أشخاصها و أفرادها و مجتمعاتها من غير استثناء (كما انه شأن الإسلام) فان ذلك مما يدهش الفكرة تصوره أو هو مجال عادي.

و صعوبة هذا الأمر و مشقته في الأعمال أزيد منها في الاعتقادات فأن استئناس الإنسان و اعتياده و مساسه بالعمل أقدم منه بالاعتقاد، و هو اظهر لحسه و اثر عند شهواته و أهوائه، ولذلك أظهرت الدعوة الاعتقادات الحققة في أول أمرها جملة لكن القوانين و الشرائع الإلهية ظهرت بالتدرج حكما فحكما⁽³²⁾.

و بالجملة تدرجت الدعوة في إلقاء مضمراتها إلى الإنسان لئلا يشمس عن تلاقيها الطباع و لا تتزلزل النفوس في نصف بعض أجزاء الدعوة على بعض و عليه يمكن القول بأننا إذا أردنا عرض الدعوة مع إجمال غاياتها و أهدافها في كلمات يمكننا تقسيمها إلى ثلاث اتجاهات: أولها: كما يقول المودودي أن تكون دعوتنا للبشر كافة و المسلمين خاصة أن يعبدوا الله و حده لا يشركوا به شيئا و لا يتخذوا إلها و لا ربا غيره.

و ثانيتهما: أن تكون أيضا دعوتنا لكل من اظهر الرضا بالإسلام ديننا أن يخلصوا دينهم لله و يزكو أنفسهم من شوائب النفاق و أعمالهم من التناقض⁽³³⁾.

مدركين أن الدعوة لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي: « لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفؤا احد » (الإخلاص / 4-3)⁽³⁴⁾ هذه الدعوة لا ينبغي أن تتجاوز حدود الله إلى الأشخاص بل تكون دعوة الأشخاص إلى الله لا لأحد من البشرية على اختلاف ألوانها و مراتبها قال تعالى: « و أن المساجد لله فلا تدع مع الله أحدا » (الجن/18)⁽³⁵⁾ و أن تكون الدعوة إليه وحده خالصة في بيوته تعالى شريطة أن يكون الجدال فيها بالحسنى لا عن طريق التكابر و العناد قال تعالى: « و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم و قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم و إلهنا و إلهكم واحد و نحن له مسلمون » (العنكبوت /46)⁽³⁶⁾.

كما قال مولانا: « و جادلهم بالتي هي أحسن » (النمل/125)⁽³⁷⁾.

و الدعوة كما يقول الصدر حاجة إنسانية ثابتة و الدعوة على هذا الأساس لها دور كبير في الإسلام و أحكامها أيضا تمثل أيضا جزءا مهما من الدعوة، بل و السلوك الدعوي يشكل ظاهرة ملحوظة في الحياة اليومية للإنسان المتدين. و نظام الدعوة في الإسلام يمثل أحد أوجهها الثابتة التي لا تتأثر بطريقة الحياة العامة و ظروف التطور المدني في حياة الإنسان إلا بقدر يسير، خلافا لجوانب أخرى مرنة و متحركة، يتأثر أسلوب تحقيقها و تطبيقها بظروف التطور المدني في حياة الإنسان. ففي المجال الدعوي يصلي الإنسان عصر الكهرباء و الفضاء و يصوم و يحج كما كان يصلي و يصوم سلفه في عصر الطاحونة اليدوية⁽³⁸⁾.

صحيح أنه في الجانب المدني للدعوة من التحضير لها قد يختلف هذا عن ذلك، فهذا يسافر إلى الحج بالطائرة، و ذلك يسافر ضمن قافلة من الإبل، و هذا يستر جسده في الصلاة بملابسة مصنعة أنتجتها الآلة و ذلك يستر جسمه بملابس نسجها بيده، و لكن صيغة الدعوة و طريقة تأديتها واحدة و ضرورة ممارستها ثابتة و لم تتزعزع قيمتها الدعوية بالنمو المستمر لسيطرة الإنسان على الطبيعة و وسائل عيشه فيها.

و هذا يعني أن الدعوى لم تعط الصلاة و الصيام و الحج و الزكاة و غير ذلك من الأمور الإسلام كوصفة موقوتة، و صيغة محدودة بالظروف التي عاشتها في مستهل تاريخها بل فرضت الدعوة على الإنسان و هو يزاوئ عملية تحريك الآلة بقوى الذرة كما فرضتها على الإنسان الذي كان يحرق الأرض بمحراثه اليدوي. و نستنتج من ذلك أن نظام الدعوة يعالج حاجة ثابتة في حياة الإنسان، خلقت معه و ظلت ثابتة في كيانه على الرغم من التطور المستمر في حياته، لأن العلاج بصيغة ثابتة يفترض أن الحاجة ثابتة و من هنا يبرز السؤال التالي: هل هناك حقا حاجة ثابتة في حياة الإنسان منذ بدأت الدعوة دورها التربوي للإنسان، و ظلت حاجة إنسانية حية باستمرار إلى يومنا هذا. لكي نفسر على أساس ثباتها ثبات الصيغ التي عالجت الدعوى بموجبها تلك الحاجة و أشبعناها. و بالتالي نفسر استمرار الدعوة في دورها الإيجابي في حياة الإنسان.

و قد يبدو بالنظرة الأولى أن افتراض حاجة ثابتة من هذا القبيل ليس مقبولا و لا ينطبق على واقع حياة الإنسان حين تقارن بين إنسان اليوم و إنسان الأمس البعيد⁽³⁹⁾.

لأننا نجد أن الإنسان يتتعد باستمرار بطريقة حياته و مشاكلها و عوامل تطورها عن ظروف مجتمع القبيلة التي ظهرت فيه الدعوة و مشاكله الوثنية و همومه و تطلعاته المحدودة. و هذا الابتعاد المستمر يفرض تحولاً أساسياً في كل حاجاته و همومه و متطلباته, و بالتالي في طريقة علاج الحاجات و تنظيمها, فكيف بإمكان الدعوة بنظامها الخاص أن تؤدي دوراً حقيقياً على هذه الساحة الممتدة زمنياً من حياة الإنسانية, على الرغم من التطور الكبير في وسائل و أساليب الحياة.

شروط الدعوة:

أ- العلم: إن كل دعوة تحتاج و بشكل كبير إلى العلم حيث أن العلماء هم أولئك من يمكنهم التصدي إلى محاربة الآفات و الشرور على اختلاف أنواعها و بخاصة أن هذا العلم اتفقت عليه البشرية قاطبة, معتبرته أساساً و مبدأ لكل عمل من الأعمال وقد لاحظ محمد حسين هذه القضية و اعتبرها من أسس الدعوة و قواعدها الثابتة التي تركز عليها فقال: " إن الإنسان البسيط في أوائل نشأته حين ما يوطأ الحياة لا يرى من نفسه إلا أنه ينال من أشياء أعيانها الخارجية من غير أن ينتبه أنه يوسط بينه و بينها وصف العلم, و لا يزال على هذا الحال حتى يصادف في بعض مواقفه الشك أو الظن, و عند ذلك ينتبه أنه لا ينفك في سيره الحيوي و معاشه الدنيوي عن استعمال العلم لا سيما و هو ربما يخطئ و يغلط في تميزاته, و لا سبيل للخطأ و الغلط إلى خارج الأعيان, فيتيقن عند ذلك بوجود صفة العلم (و هو الإدراك المانع من النقيض) فيه⁽⁴⁰⁾. ثم البحث البالغ يوصلنا أيضاً إلى هذه النتيجة, فان ادراكنا التصديقية تحلل إلى قضية أول الأوائل (و هي أن الإيجاب أو السلب لا يجتمعان معا و لا يرتفعان معا) فما من قضية بديهية أو نظرية إلا و هي محتاجة في تمام تصديقها إلى هذه القضية البديهية الأولية, حتى أنا لو فرضنا من أنفسنا الشك فيها و جدنا الشك المفروض لا يجامع بطلان نفسه و هو مفروض, و إذا تبنت هذه القضية على بدايتها ثبت جم غفير من التصديقات العلمية على حسب مساس الحاجة إلى إثباتها, و عليها معول الإنسان في أنظاره و أعماله.

فما من موقف علمي و لا واقعة عملية إلا و معول الإنسان فيه على العلم حتى أنه, إنما يشخص شكه بعلمه أنه شك, و كذا ظنه أو وهمه أو جهله بما يعلم أنه ظن أو وهم أو جهل. و إن مفهوم العلم بهذه المعنى يعتبر في الوجهة الإسلامية الدعاوية متأسس على خاصية الشمول التي يتصل بها الإسلام في تعاليمه التي نعم البيان ما هو كائن من حقائق الوجود, و ما ينبغي أن يكون في حياة

الإنسان. و عندما كانت هذه التعاليم الدعاوية شاملة لكل مجالات الحياة كما يقول النجار، أما على مستوى التحديد و التفصيل، أو على مستوى وضع المبادئ و الأصول العامة. و من هذا المعنى نشأ مفهوم العلم إلا أن العلم ليس إلا نتيجة لحركة الفكر فمفهومه يتحدد بمفهومها و مداها، و لذلك فإن العلم في المفهوم الإسلامي يمتد ليشمل مطلق التصور الحقيقي لما هو موجود و لا يمكن أن يوجد⁽⁴¹⁾.

و يضيف النجار قائلاً في هذا المجال و انه بما المفهوم الشامل للعلم صدرت التعاليم الإسلامية قرآناً و سنة بالبحث على طلب العلم و الدعوة إلى تحصيله دعوة ارتفعت به إلى مصاف الفروض، إما على سبيل العينية فيما لا قوام للفرد إلا به، أو على سبيل الكفاية فيما هو ضروري لحياة الأمة الإسلامية و مناعتها.

قال تعالى: " إنما يخشى الله من عباده العلماء " (فاطر/28)⁽⁴²⁾ و قال: " يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين أوتوا العلم درجات " (المجادلة/1)⁽⁴³⁾ و قال أيضاً: " قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون " (الزمر/09)⁽⁴⁴⁾ و قال . صلى الله عليه و سلم . : " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة " ⁽⁴⁵⁾.

و لقد كانت هذه التعاليم واردة و وروداً متكاثراً في الكتاب و السنة على السواء، تشكل الداعي النفسي المهم الذي من شأنه أن يوقظ في المسلمين التطلع إلى العلم. قال القرضاوي: و قد تكاثرت أحاديث النبي . صلى الله عليه و سلم . و تتابعت بعد آيات القرآن الكريم في بيان فضل العلم و منزلة العلماء عند الله و عند الناس، في الدنيا و الآخرة، و رفعت العلماء مكاناً عالياً، لا يسعى إليه على قدم، و لا يطار له على جناح إلا بوساطة العلم⁽⁴⁶⁾.

و لا ريب أن أولى العلوم بذلك هو علم الدين، الذي به يعرف الإنسان نفسه و يعرف ربه، و يهتدي إلى غايته، و يكتشف طريقه، و يعلم ماله و ما عليه، ثم بعد ذلك كل علم يكشف عن حقيقة تهدي الناس إلى الحق، أو تقرهم من خير، أو تحقق لهم مصلحة، أو تدرأ عنهم مفسدة يقول . صلى الله عليه و سلم . " من يرد الله به خيراً، يفقهه في الدين " . و يقول : " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له طريقاً إلى الجنة، و ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا حفظتهم الملائكة و نزلت عليهم السكينة، و غشيتهم الرحمة، و ذكرهم الله فيمن عنده " ⁽⁴⁷⁾.

و يقول : " إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، و إن العلم ليستغفر له من في السماوات و من في الأرض، حتى الحيتان في الماء، و فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، و إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا و لا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر" (48-49). و هذه الأحاديث تدل بوضوح على فضل العلم في إنارة سبيل طريق الدعوة، الشاملة للدين و الفقه و كل ما من شأنه أن يفيد الإنسان و هذا كله ملاحظ في الكتاب و السنة، حيث أن العلم في أساسه هو معرفة بالظاهر و قد يتصل أكثر ما يتصل بالعقل وحده.

فالعلم هو دراسة العلم المحسوس الذي يخضع أو يمكن أن يخضع لتجارنا و مشاهد، قال وحيد خان الدين أن العلم محدود بالمعلومات عن هيكل الأشياء حقيقة

ذات أهمية قصوى. إنها تؤكد أن الحقيقة الكاملة لا تزال غير معروفة. و في ضوء هذه الحقيقة لا يمكن الزعم . الآن . بأن أحاسيسنا أو تجربة اتصال النبي بالله ليس لهما مثل موضوعي (خارجي) و ذلك لأنه من الممكن جدا أن يكون هناك مثل خارجي لهذه الأحاسيس أو لتجربة النبي أو العارف بالله، الم بعد من الممكن أن يقال عن أحاسيسنا الدينية أو الجمالية أنها مجرد ظواهر خادعة. كما كانوا يقولون بالأمس صلافة و تبججا. و بإيجاز: " إن العارف بالله المؤمن بالدين يمكنه أيضا أن يعيش كحقيقة . في هذه الدنيا" (50) .

و قد لاحظ النجار حول هذه القضايا المتعلقة بالعلم من نزاعات أثيرة وجدالات قيلت حيث ذهب إلا أن العلم بالأشياء و تصور حقائقها، يولد ألفة و استئناسا، ينشأ عن هما من الأمن و الطمأنينة ما يكون المناخ الطبيعي الذي تأخذ فيه ملكات الإنسان أبعادها الحقيقية، فينتقي منها كل اضطراب، و يتحقق فيها التوازن، و من هنا فإن الأوامر الإلهية بطلب العلم الشامل حسب الطاقة إنما هي لنقل العالم الخارجي أدوات و معان من واقعها المفارق للكينونة الإنسانية إلى داخل الإنسان و ذلك بحصول صورته في ذهنه . و ذلك هو العلم . و حينذاك تحصل درجة من القربى بين الإنسان و بين ما سواه، بل بينه و بين نفسه، تزول معها كل غربة و بالتالي كل توتر و تناقض.

فالعلم بالخالق و صفاته، و العلم بالطبيعة و قوانينها يزيل من النفس الخيرة من أمر الوجود مأتى و مصيرا، و يزيل الخوف و الهلع من أحداث الطبيعة، كما يزيل الضيق و القنوط من قحطها ما دام قدر الله هو المسيطر، و مادام للطبيعة قوانين و سنن سيرها الله تعالى عليها، بل أن العلم بها يمهّد إلى

الانطلاق في الكون، و السيطرة عليه و استغلاله، فضلا عن انتقاد الحيرة و الغربة، و تكون النتيجة أن يتم بهذا العلم اصطلاح الإنسان مع الطبيعة و ما وراءها⁽⁵¹⁾.

و العلم ينبغي أن يكون في أمر الاجتماع، و ما على الإنسان أن يعطيه لأخيه الإنسان من ذات يده و من ذات روحه، و ماله أن يأخذ منه، من شأنه أن يزيل من النفس مشاعر الحقد و البغضاء، و أن يجد من نزعة الامتداد على حسب الآخرين فتقوم في كيان الفرد تعادلية الحق و الواجب، و بذلك يتم الإصلاح بين الإنسان و بين نفسه.

و لهذا الدور الذي يقوم به العلم في تقويم النفس بتقريب الأشياء منها، و نفي غريبتها عنها، و صنع علاقة تآلف بينها و قد قال . صلى الله عليه و سلم . في حقه مما يؤيد هذا المعنى: " هو الأنيس في الوحشة، و صاحب في الغربة، و المتحدث في الخلوة، و الدليل في السراء و الضراء"⁽⁵²⁾.

و العلم في نظر الإنسان لا يعد مقابلا للإيمان، فضلا عن أن يكون واقفا ضده، فالإسلام لم يعرف نزاعا بين العلم و الإيمان في تاريخه، لأن هذه الفكرة لا مجال لها في تعاليمه، لا نصا و لا روحا.

فالإسلام كما قال القرضاوي يرفض في بناء الدعوة أو العقيدة التقليد أو التبعية كقول من قالوا: « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » (المائدة/104)⁽⁵³⁾، أو « إنا أطعنا سادتنا و كبارنا » (الأحزاب/67)⁽⁵⁴⁾ أو كما في الحديث: « لا يكن أحدكم إمعة، يقول: أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، و إن أساءوا أسأت »⁽⁵⁵⁾.

و يرفض أيضا الضن حيث لا يغني في شأن الدعوة إلا العلم و اليقين، و يضيف القرضاوي قائلا إن القرآن يأبى أن تبنى العقيدة أو الدعوة على الخرافات و الأساطير و إنما تبنى على أساس البرهان القائم على النظر العميق، و التفكير الهادئ، و لأجل هذه صاح القرآن في أصحاب العقائد الباطلة: ⁽⁵⁶⁾ « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (البقرة/111)⁽⁵⁷⁾.

و لا عجب أن تكررت في القرآن هذه العبارات الموقظة للفكر من غفلته و المحررة للإنسان من رقة تقليده و جموده، مثل (أفلا تعقلون) (أفلا تتفكرون) (أفلا ينظرون) (أو لم يتفكروا) (لقوم يعقلون) (لقوم يعملون) (لقوم يتفكرون).

و حسبك أن تقرأ هذه الدعوة القوية الصريحة إلى التفكير « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى و فرادى ثم تفكروا » (سبأ/46) (58) .

و هذا ما دعا الأستاذ عباس العقاد * رحمه الله * أن يخرج كتابا عنوانه « التفكير فريضة إسلامية » و هذا تعبير صحيح, فالإسلام كما فرض على الناس أن يتعبدوا, فرض عليهم أن يفكروا.

فالعقيدة في الإسلام تقوم على العلم لا على التسليم الأعمى, يقول القرآن: « فأعلم أنه لا اله إلا الله » (محمد/19) (59) . « و اعملوا أن الله شديد العقاب و أن الله غفور رحيم » (المائدة/60) , « و اعملوا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه, واعلموا أن الله غفور رحيم » (البقرة/235) (61) .

لم يخش القرآن عواقب الدعوة إلى النظر و التفكير و العلم أن تأتي بنتائج تناقض حقائق الدين و مسلماته, لأن فكرة الإسلام, أن الحقيقة الدينية لا يمكن أن تناقض الحقيقة العقلية, فالحق لا ينقض الحق, و اليقين لا يعارض اليقين, إنما يعارض اليقين الظن, و تنافي الحقيقة الشك, أو الوهم أو الافتراض. و من هنالك لا يمكن بحال مناقضة صحيح المنقول لصريح المعقول و إذا بدا لنل في بعض الأحيان تناقض ظاهري, فلا بد أن يكون المنقول غير صحيح أو المعقول غير صريح.

و هذا يقع كثيرا أن يظن ما ليس من الدين دنيا, و أن يحسب ما ليس من العلم علما. فليست كل أفهام أهل الدين ديناً, كما أنه ليست كل نظريات أهل العلم علماً. إن القرآن يعتبر العلم الحق دعياً إلى الإيمان و دليل إليه, قال تعالى: « و ليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم » (الحج/54) (62) .

فهذه المعاني الثلاثة مترتب بعضها على بعض.

فالعلم يتبعه الإيمان تبعية ترتيب بلا تعقيب, ليعلموا فيؤمنوا.

و الإيمان تتبعه حركة القلوب من الإخبات و الخشوع لله تعالى, و هكذا يثمر العلم الإيمان, و يثمر الإيمان الإخبات و التواضع لله رب العالمين و في آية أخرى يذكر العلم و الإيمان متعاطفين جنباً إلى جنب (63), كما قال تعالى: « و قال الذين أوتوا العلم و الإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث » (الروم/56) (64) .

فالعلم و الإيمان في الآية الكريمة مقتزمان، متعاطفان، و ليس من الأضداد التي إذا ثبت أحدهما ، انتفى الآخر.

و إذا أردنا بالعلم : العلم بمفهومه الشائع اليوم، و هو المادي القائم على المشاهدة الحسية و التجربة فلا ننكر أيضا قيمة هذا العلم، و حاجة الناس إليه لأن العلم المادي مطلوب للإنسان و لا شك، و لكنه مطلوب طلب الوسائل طلب الغايات.

و هو يعين الإنسان على الحياة، و يسير له سبلها و يختصر له الزمان و يطوي له المكان، فيقرب البعيد، و يلين الحديد، و لكنه وحده لا يستطيع إسعاد البشر، كما لا يمكنه وحده إن يضبط سير الشر و يقاوم أنانية الإنسان و نزاعات نفسه الأمارة بالسوء.

و لهذا كان الإنسان في حاجة ماسة إلى « العلم الديني » الذي ينمي الإيمان و يحيي الضمائر، و يغرس الفضائل، و بقي الإنسان شح نفسه و طغيان غرائزه على عقله، و هواه على ضميره، و هذا هو الذي يعصم "العلم المادي" من الانحراف، و يحول دون استخدامه في التدمير و العدوان و قد ضرب لنا القرآن مثلا بسليمان عليه السلام، الذي آتاه الله ملكا لم يؤته أحدا من بعده ، فقد احضر إليه عرش بلقيس من سبأ باليمن إلى مقره بالشام، قبل أن يترد إلى طرفه. بفضل ذلك الذي وصفه القرآن بأنه (عنده علم الكتاب) وهنا تجلّى الإيمان حين ارجع سليمان

الفضل إلى الله لا إلى نفسه فلم يركبه الغرور، أو يستبد به الطغيان « قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه و من كفر فإن ربي غني كريم » (النمل /40)⁽⁶⁵⁾.

و لكن صلاح قنصوه يذهب أيضا إلى إن العلم يمتاز بالشمولية و الدقة و النشاط في كل حقل من حقول المعارف المختلفة و المتنوعة على جميع الأصعدة و

في شتى ألوان مجالات الحياة فيقول: إن الباحثين جميعا قد اتفقوا على إن العلم بحث نظري، بمعنى انه جهد مبذول للمعرفة و الفهم الذي يحيط بظواهر الطبيعة على إن تشتمل الطبيعة كل من الإنسان و العلم المحيط به، و لكن الخلاف لا يبرز إلا عند من لا يقنعون به كذلك، بل يمدون مجاله إلى تطبيقات نتائج بحثه النظري على كافة ميادين الحياة، فالعلم عند هؤلاء نظر و تطبيق. و لا مسوغ لديهم للفرقة بين علم أكاديمي و آخر تطبيقي. أو بين بحث نظري و بحث علمي. و بذلك ترتفع الحدود بين الاكتشاف و الاختراع، و تزول الفوارق بين العلم و التكنولوجيا فالعلم، في نظر هؤلاء، ليس حسب معرفة

ضروب متعددة من الوجود و فهمها. كما يقول (كود جانوف) بل يضاف إلى ذلك خلقه و إبداعه لألوان جديدة من الواقع. و لا فرق بين ما يبدعه من مفهومات فيزيائية و رياضية, و بين ابتكاره لعناصر كيماوية.

و بذلك يدخل العلم في حقل الدعوة الشاملة و يسهم أيضا في إفادة بني الإنسان و دعوتهم إلى الخير كي يؤمنوا به و يدركوا أن من الأصلح لهم أن يتبعوا ما تقوم الدعوة بإسدائه إليهم من نصائح يستطيعون من خلالها أن يفهموا ما قد يتعرضهم أو يقف في وجوههم حجر عثرت من حيث كون أن الله القوة و العزة في سلطانه فالدعوة إليه لا تقوم على أساس الإيمان به كما يذهب إلى ذلك القرضاوي الذي يقول: « ألا إن العلم الحق هو الذي يهدي إلى الإيمان, و الإيمان الحق هو الذي يفسح مجالا للعلم, فهما إذن شريكان متفاهمان, بل إخوان متعاونان.

و هذا هو العلم الذي يريده الإسلام أيا كان موضوعه, و مجال بحثه يريده علما في ظل الإيمان, و في خدمة مثله العليا, و إلى ذلك أشار القرآن حيث قال في أول آية نزلت "اقرأ بسم ربك الذي خلق" و القراءة عنوان العلم ومفتاحه و مصباحه, فإذا كان أول أمر الهي نزل به القرآن (القراءة) كان ذلك أوضح دليل على مكانة العلم في الإسلام .

و لكن القرآن لم يطلب (مطلق قراءة) و إنما طلب قراءة مقيدة بقيد خاص و هو أن تكون "بسم الله", و إذا كانت القراءة بسم الله , فقد وجهت إلى الحق و الخير و الهداية, لأن الله تعالى هو مصدر هذا كله⁽⁶⁶⁾.

و لا شك أن العلم هو أساس ما تتم به الدعوة إلى الإسلام الذي هو الآخر بدوره لا يناقض العلم و لا يرفضه بل نجد أنه قد أسهم في إثارة الدعوة الإسلامية و إعطائها دفعا كبيرا في الأوساط الاجتماعية ولا غرو أن نشأ العلم الإسلامي في أحضان الدين⁽⁶⁷⁾.

العقل: إن الإسلام لا يناقض العقل و لا يرفضه بل يعد اغتياله ظلما و الدليل على ذلك أن القرآن الكريم و السنة النبوية المطهرة قد شجعا على العقل و اعتباره أساسا من الأسس التي يبنى عليها قوام الحياة, ومن هنالك نجد أن دعيا كما يقول النجار دعوة ملحة ومتكررة إلى استعمال العقل في مجال الدعوة. و اتخذت تلك الدعوة مسلكين, مسلكا نظريا و مسلكا عمليا:

- أما المسلك النظري فيتمثل فيما ورد من الأمر الصريح، و الحث المتكرر على التفكير و التدبر لإدراك معنى معين من معاني الدعوة وهو ما يحفل به القرآن الكريم، حتى أن المواطن التي ورد فيها هذا الحث بأسلوب أو بآخر بلغت في مادة (العقل) ثمانية وخمسين موطناً⁽⁶⁸⁾. و من أمثلة الحث على أعمال العقل قوله تعالى: «إن في خلق السماوات والأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولي الألباب» (آل عمران/190)⁽⁶⁹⁾، و هذا لإدراك الوجود الهني، و قوله تعالى: «من اله غير الله يأتاكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون» (القصص/72)⁽⁷⁰⁾ و هذا لإدراك التوحيد، و قوله تعالى: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت و إلى السماء كيف رفعت و إلى الجبال كيف نصبت» (الغاشية/17-19)⁽⁷¹⁾ وهذا لإدراك القدرة لإلهية.

و قد تكون الدعوة إلى استعمال العقل ضمنية، كما يبدو في لوم و تقييد أولئك الذين لم يستعملوا عقولهم فوقعوا في الخطأ.

و يضيف النجار قائلاً بأن المسلك العملي قد يتمثل في ما ورد من الاستدلالات العقلية على ثبوت حقائق عقائدية أو دعوية. و إن هذه الاستدلالات العقلية لمي تربية عملية تبين كيفية استعمال العقل لإدراك العقيدة وهي تكمل الدعوى النظرية إلى التعقل والتدبر⁽⁷²⁾.

كما يقول وحيد الدين خان إن موقف علماء الإسلام يرجع إلى تلك الاستدلالات على ما يدعون إليه عن طريق الاستمساك بالعقل و اعتباره ذلك الينوع الخالص في كل دعوة يريد لها صاحبها أن تؤتي في المجتمع. فقد صاغ عبارات تكمن من وراءها حقائق علمية إلا أن عبارة الحقيقة العليا و هي المتغيرة قد تكون عبارة صحيحة نحويًا، ولكنها أقرب شيء إلى شيك بلا رصيد⁽⁷³⁾.

إن آراء من هذا النوع تعني أن الدين لا يستند إلى أي أساس، فهو لا يعدو أن يكون محض عقيدة... وذلك لأن أمراً ما لا يصبح حقيقة إذا تم إثباته خارج عالم العقيدة الداخلي، فمثلاً لو قال أحدنا إن المجرات السماوية ليست سحبا مشعة، و إنما هي مجموعات لنجوم كثيرة فالقول ليس سوى عقيدة ذاتية لصاحبه، أما إذا جاء بالمنظار المكبر و مكن الآخرين من مشاهدة النجوم في أمكنة السحب المضيفة فإن هذه العقيدة ستصبح حينئذ حقيقة قابلة لمشاهدة الجميع، أما حقائق الدين فلا يمكن إجراء التجارب عليها في العالم الخارجي، ولهذا يعتبر الدين مجرد دعوى أو محض عقيدة داخلية لا غير في رأي هؤلاء⁽⁷⁴⁾.

ولنناقش هذا الادعاء.

إن هذا المعيار الاستدلالي الذي سبق ذكره أنفا يبدو وكأنه شيء واحد لبساطته , و لكن له درجات من الناحية العملية.

يضيف وحيد الدين خان: " أن الدرجة الأولى لهذا المعيار هو أن يكون الأمر المراد مشاهدته أو تجربته في متناول يدنا مباشرة", كمن يقولك « إن الماء يحتوي على كائنات حية » , و قد يتعجب بعضهم من هذا القول, و لكن وضع المنظار المكبر على قطرة من الماء سيؤكد أن عددا كبيرا من هذه الكائنات الحية موجود فعلا في الماء.

أما الدرجة الثانية لهذا القياس هو ألا تكون الدعوى قابلة كليا للملاحظة, بل يمكن مشاهدة بعض أجزائها. و على سبيل المثال: فان دعوى « الأرض كروية » لا يمكن أن يشاهدها الإنسان في صورتها الكاملة إلا أنه يستطيع أن يشاهد أجزاء مختلفة تؤكد حقيقة أن الأرض كروية و ذلك كأن تطير عاليا ثم تصور الأرض بكاميرا مزودة بالمنظار المكبر, فان الأرض ستبدو لك كروية في الصورة تماما كما يبدو لك القمر. و الواضح أن ذلك إلا جزءا من كرويتها, و ليس هو الصورة الكاملة لها.

ثالثا: و لكن الحقائق التي ندركها من النوع الثاني من المشاهدات ليست إلا جزءا بسيطا من الحقائق المعروفة لنا. فالحقيقة أننا لم نحصل على "حقيقة ذات أهمية" عن طريق هذا النوع من المشاهدات, بالرغم من أن دراستنا للكون تؤكد وجود مالا يحصر من الحقائق ذات الأهمية في هذا الكون. و هنا يضيف العقل الحديث معيارا جديدا للاستدلال العلمي يتلخص في أن " الاستدلال يعتبر مقياسا علميا سليما إذا شوهدت فيه بعض جوانب التجربة التي تؤكد وجود حقيقة ما, و ذلك بالرغم من عجزنا عن مشاهدة تلك الحقيقة بكامل جوانبها في تلك التجربة" و نضرب لذلك مثلا بالإلكترون الذي لا يخضع للملاحظة نظرا لتناهي وجوده في الصغر بحيث لا يمكن لمنظار ما مشاهدته و لا يمكن لميزان ما وزنه, و لكن بالرغم من ذلك يعتقد العلماء بأن الإلكترون حقيقة علمية⁽⁷⁵⁾.

و الدعوة كثيرا ما تستفيد من العقل بل يمكن لها أن تستمد منه قوتها عن طريق المشاهدات و التجارب و أنواع العلم المختلفة فإلى العقل ترجع كل هذه الحقائق و هو الذي يثبتها و يدعمها بما يملك من حجج ثابتة و قوية و ذلك نتيجة لما يتمتع به من فوائد و مزايا, أما ترى أن هؤلاء العقلاء قد

يستطيعون بإمكانياتهم العقلية أن يثبتوا صلاحية الدعوى و نجح عتها في شتى مناحي الحياة كما يستطيعون أيضا في الوقت نفسه مقاومة الشر بالخير اعتمادا على ما هو موجود في كتاب الله العزيز الذي تنبثق منه الدعوة التي هي الأسلوب أو النظام الذي يستحسن أو يجب إتباعه في أعمال الدعوة و شؤون الإرشاد و التوجيه.

فالإحسان أو الوجوب فيه يعد من أحسن الطرق و أجدها لتحقيق الغاية من الدعوة, و كونه السبيل الأمثل إلى قناعة العقول و رضا النفوس.

و تنبثق حقيقة إتباع المنهج و ضرورته كما يقول البوطي من أن مبادئ الإسلام و أحكامه تعتبر من أسس تتعلق باليقين العقلي و إلى فروع تتعلق بما يترتب على تلك الأسس من الأعمال و السلوك. و الأسس العقلية نفسها تتفاوت في الشمول و الترتيب العقلي. بحيث أنك تتأمل فترى أن اليقين بأوسعها شمولاً ينهض دليلاً على الذي يليه, فهي سلسلة من الحقائق, لا بد إذا سرت معها بدءاً من أولها, أن تجد كل حلقة منها تهديك إلى الحلقة التي تليها و هكذا⁽⁷⁶⁾.

و إذا كانت حقائق الإسلام و أحكامه, مترابطة بهذا الترتيب, فلا بد, أن يكون المنهج الإرشادي أو التعليمي لها متآلفاً مع هذا الترتيب متسقاً مع خطواته.

الحقيقة الثانية أن الإسلام من شأنه أن يثابر بما يتلقاه من ضروب التوجيه, بدافعين اثنين: دافع عقلي و دافع نفسي, و قيمة الدافع النفسي تكون في أكثر الأحيان أشد فاعلية و أقوى تأثير من الدافع العقلي. أنك, إذا أمعنت النظر, رأيت أن الدوافع النفسية للسلوك, تشكل عند أكثر الناس مالا يقل عن 60 % على حين لا يزيد الدافع العقلي عندهم على 40 % من مجموع الدوافع السلوكية كلها.

و مع ذلك فهو يؤدي دوره في الدعوة من حيث كونه يقضي بالناس إلى التأمل في ما حولهم و التفكير فيما يحيط بهم و النظر إلى ما يصلح شأنهم و أوضاعهم كما يذهب إلى ذلك النجار إذ يقول: إذا العقل هو تلك الملكة الفطرية في الإنسان التي يستطيع بها أن يرتب محصول الحواس, و أن يدرك ما وراءها من المعاني المجردة و أن يميز بطرق و مناهج معينة بين ما هو باطل و أن يستنبط المصالح و الأغراض, و العقل هو أساس التكليف فمن لا عقل راشد له ليس مخاطباً بالدين أصولاً و فروعاً.

و الدعوة هي ما بلغه الرسول صلى الله عليه و سلم من الحقائق المتعلقة بالغيب ذات الطابع التجريدي, من مثل الوجود الهوي, و ثبوت صفات الكمال المطلق للذات الإلهية, و ثبوت الوحي و

الميعاد، و تحمل هذه المعاني يكون بالذهن على سبيل التصديق الجازم، و هي رأس الدين و أساسه، و كل ما سواها من الأعمال مبني عليها و تابع لها، و لذلك فان صلاح الأعمال رهين لحسن الاعتقاد، و لما كانت الدعوة معاني مجردة، و لما كان العقل هو الملكة التي تدرك المجردات، فلا نتصور إلا أن يكون للدعوة بالعقل صلة، و هي صلة المدرك بالمدرك.

و يعلق القرضاوي على هذا الذي يمكن أن تسير الدعوة في إطاره على اعتبار أنها تعود أساسا إلى الحقائق الثابتة و البراهين الساطعة لا إلى الظنون و الأكاذيب و الخرافات و الأساطير فيقول هناك عقلية عامية أو خرافية تصدق غالبا كل ما يقال لها، و تقبل كل ما يلقي إليها، و خصوصا إذا جاء ممن تعظمه من الآباء أو الكبراء، و تنقاد لما عليه جمهور الناس صوابا كان أم خطأ، و لا تمتحن أفكارها و لا تخضع معلوماتها لمناقشة أو اختبار، شعارها: "هذا ما وجدنا عليه آبائنا" أو "نحن مع الناس أحسنوا أو أساؤوا"⁽⁷⁷⁾.

و في مقابل هذا اللون: "العقلية العلمية الموضوعية" التي لا تقبل نتائج بغير مقدمات، و لا تخضع إلا للحجة والبرهان، و لا تحكم العواطف و الظنون في مقام يطلب فيه اليقين المجرد، و العلم المحقق. و قد وضع القرآن المعالم الأساسية التي تقوم عليها هذه العقلية العلمية للدعوة الإسلامية و بالإمكان إيجازها في الشروط الآتية:

- ألا تقبل دعوى بغير دليل مهما يكن قائلها، و الدليل هو البرهان النظري في العقليات « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (النمل/64)⁽⁷⁸⁾.

و المشاهدة أو التجربة في الحسيات « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أو شهدوا خلقهم » (الزخرف/19)⁽⁷⁹⁾، و صحة الرواية و توثيقها في النقليات « اثبتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » (الأحقاف/04)⁽⁸⁰⁾.

و إن المهم هي هنا كما يذهب إلى ذلك سعيد رمضان البوطي في قوله الممثل في أن نعمل بأن على الداعي أن يحسب النفوس الإنسانية حسابها، و أن يتأكد من أن أمر انصياع الناس للحق لا يتعلق بالقناعات العقلية وحدها، بل يتعلق بقدر كبير منه . بعد حصول هذه القناعات . بترويض النفوس على الخضوع له و الانسجام معه. و هذا من شأنه أن يجذب النفوس شيئا فشيئا إلى الحق الذي آمنت به

العقول. و أن يحاذر من سلوك سبيل يثير النفوس إلى الاشتزاز أو التبرم بما قد آمن به و صدقه العقل.....

فمن هاتين الحقيقتين تنبتق ضرورة التزام الداعي إلى الله بمنهج يسير عليه و انك لتلاحظ أن الحقيقة الأولى مردها إلى المنهج العلمي الذي يجب إتباعه في البحث عن الحقيقة. و أن الحقيقة الثانية مردها إلى تهذيب النفوس و تصعيدها شيئاً فشيئاً إلى مستوى اليقينيين العقلية⁽⁸¹⁾.

و عليه يستطيع المرء أن يقول في هذا المجال الدعوى إن ما يمكن أن يأخذه من أركان الإسلام كما يقول أحمد سيكوتوري، في مجال التطبيق العملي لإرشادات القرآن الكريم هو أن المرء لا يكون مسلماً خارج نطاق العقل. فلايمان بالله و بوحدانيته، و الإيمان بمحمد نبي الله و رسوله هو من عمل العقل. و بهذه الدعوة يجب أن يعيش المرء نابض العقل في كل لحظة، بل في كل مكان و زمان، و ليست الصلاة مجرد تلاوة آيات من القرآن، فعلى المرء قبل أن يشرع في الصلاة أن يعبر عن نيته واعياً بما يفعل، و كأنما يحدث نفسه قائلاً: "إنني أتوقف هنا و آخذ هذا الجزء من المكان، و استغل هذا الحيز الزماني لأسلم نفسي إلى خالقي" و يجب أن يتلفظ المرء بهذه النية قبل أن يقول "الله أكبر" انه العقل الذي سيكون قريباً تماماً من الله خلال لحظات الصلاة، غير أنكم إذا شردتم في الساعة التي تصلون فيها، و شدتكم شؤونكم المالية، أو استيقظت في خيالكم امرأة شابة تصحبونها إلى خمل المساء الرافض، لم تعد الصلاة صلاة، بل مجرد تدريب رياضي على الركوع و السجود، فالعقل هو الذي يتيح للمرء أن يتخطى إطار الزمان و المكان ليصبح قريباً من الله، و بهذا تتيح الصلاة للإنسان أن ينسلخ من المملكة التي يتحرك خلالها و يسودها الشيطان، فيتصل حينئذ بالله مؤمناً به في ورع و إذعان للحق⁽⁸²⁾.

و إذا كانت التعاليم الإسلامية قد حثت على استعمال العقل في مجال الدعوة بذلك اللون، فإنها لم تطلق ذلك الاستعمال بل قيدته بمجال معين و يلاحظ النجار أن الإدراك العقلي عامة على ضربين: إدراك لمعان مطروحة من قبل الغير فيكون دور العقل فيها التفهم و الاستيعاب كدراك الطالب للنظريات الرياضية، و إدراك لمعان مجهولة العقل هو الذي يكشفها و يولدها على سبيل الاختراع كدراك عالم الرياضيات للنظريات التي يكشفها ابتداء و أعمال العقل في الدعوة يرجع إلى الضرب الأول أي التفهم و الاستيعاب و ذلك لأن مصدر الحقائق الدعاوية هو الله وحده، و قد بينها لنا بوضوح بطريق الوحي بحيث لم يبق للعقل أن يختزع بسعيه الذاتي شيئاً من المغيبات.

و إنما كان دور العقل في الدعوة التفهم لا الاختراع لأنه محدود المؤهلات فهو ليس مأمون الخطأ، و الخطأ في الأساس و إن يكن صغيراً فإنه يؤدي إلى تقويض البناء كله⁽⁸³⁾.

* خلاصة: و الواقع أن العقل و إن كان محدود العمليات إلا أنه بإمكانه أن يسهم مع العلم في رفع مستوى الداعية و في إعطاء الدعوة مفهوماً إصلاحيًا تعم فائدته كل المجتمع الذي يستطيع أن يتقبل الدعوة التي هي في أساسها أمر بالمعروف و نهي عن المنكر و قد تحارب في إطار الأمر و النهي كل الشرور و المبيقات مع الحث على عمل الخير و ترشيد الناس إليه.

مصادر المقالة و مراجعها

* القرآن الكريم

- القاموس المحيط الجزء الأول 1

21-22- ثقافة الدعاية ص2

- الإسلام دين الجماعة 3

3- الأنفال/4

46- الحج/5

24- محمد/6

51- ماذا يعني انتمائي للإسلام ص 7

33 الأنعام/8-

56- الذاريات/9

10- المصدر السابق . الجزء الثاني ص 10

20- المصدر السابق ص 11

108-109 هكذا فلدع إلى الإسلام ص 12

12- الطريق إلى الله ص13

83- الأنبياء/14

90- النحل/15

85- الأعراف/16

31- غافر/17

13- المرجع السابق ص8

122- التوبة/19

83- النساء/20

07- الأنبياء/21

91-92- أين الخلل ص22

32-33

- التوبة/23

15- الميزان في تفسير القرآن ص24

11- تذكرة دعاء الإسلام ص 25

36 -

دين الجماعة ص26

155-156- الميزان في تفسير القرآن الجزء الثاني ص 27

28- الكافرون من 1 إلى 6

- 75 - الإسراء/29
- 51 - الكهف/30
- 58 - الأعراف/31
- 157 - الميزان الجزء الثاني الصفحة السابقة مع ص 32
- 9 - تذكرة دعاة الإسلام ص 33
- 3-4 - الإخلاص/34
- 18 - الجن/35
- 46 - العنكبوت/36
- 125 - النمل/37
- 11 - تذكرة دعاة الإسلام ص 38
- 3-4 - نظرة عامة في العبادات في الإسلام ص 39
- الميزان المجلد الأول الجزء الأول ص 40
- 122-123 - العقل و السلوك في البنية الإسلامية ص 41
- 28 - فاطر/42
- 09 - الزمر/43
- 11 - المجادلة/44
- 45 - أخرجه الأسيوطي في الفتح الكبير
- 09 - الرسول و العلم ص 46
- 47 - رواه البخاري و مسلم
- 48 - رواه مسلم و أصحاب السنن
- 49 - رواه أحمد و أبو داود و غيرها
- 72 - الدين في مواجهة العلم ص 50
- 125 - العقل و السلوك في البنية الإسلامية ص 51
- 52 - أورده ابن عبد البر في جامع بيان العلم و قال أنه حديث حسن جدا
- 104 - المائدة/53
- 76 - الأحزاب/54
- 55 - رواه الترمذي
- 56 - الرسول و العلم ص 13
- 111 - البقرة/57
- 46 - سبأ/58
- 19 - القتال/59
- 98 - المائدة/60
- 235 - البقرة/61

- 54
- الحج/62
14-15 - المرجع السابق ص 63
56
- الروم/64
40
- النحل/65
38
- فلسفة العلم ص 66
16 - الرسول و العلم ص 67
90-89
- العقل و السلوك في البنية الإسلامية ص 68
190 - آل عمران/69
72 - القصص/70
18-19 - العنكبوت/71
90 - العقل و السلوك في البنية الإسلامية ص 72
10
- الدين في مواجهة العلم ص 73
11 - المرجع السابق ص 74
56-57 - هكذا فليدع إلى الإسلام ص 75
89 - العقل و السلوك في البنية الإسلامية ص 76
38 - الرسول و العلم ص 77
64
- النمل/78
19 - الزخرف/79
04
- الأحقاف/80
57-58
- هكذا فليدع إلى الإسلام ص 81
37-38 - دين الجماعة ص 82
91-92
- العقل و السلوك في البنية الإسلامية ص 83